الى ماذا نحن صائرون وكيف نتلافى امرنا

(تابع ما قبله)

كيف نتدارك امرنا ومتى تبلغ امانينا

متى ايها السادة تصبح اعالي لبنان غابات ادواح وتلال سوريا وهضابها كروماً ناضرة وحدائق غنّاء يانعة ؟ متى تصبح سهولنا الواسعة ملاءة قطعاناً ومزارعنا الخصيبة تفيض حنطةً وخيراً ؟ متى نستخدم مياه انهارنا الكبيرة في ري ما على ضفافها الخصيبة من التربة فتصبح اقطاننا تكفي حاجاتنا ونصدر منها الى البلاد الاجنبيّة جانباً كبيراً ايضاً ؟ بل متى يحمل لنا صناعنا وندفع اليهم اجور العمل لا الى غيرهم فيبقى مالنا في بلادنا لا يتسرّب منها الى البلاد الاخرى اجرةً لصناعها ويبقى صناعنا فارغي الايدي وعالة على البلاد لا يجدون عملاً يعملونهُ . متى نرى كل ذلك ؟ لا بدّ ان يمرّ علينا زمن طويل قبل ان تتحقق لنا هذه الامالي، على انها لا تتحقق الّا اذا اخذنا بالاسباب المقتضية لها . وهذا ما يهمنا السؤال عنهُ اعني كيف نتدارك امرنا بحيث تبلغ امانينا من جهة وندفع من جهة اخرى عن انفسنا وعن بلادنا شرّ ما نحن صائرون اليهِ من الافلاس والخراب

يقول البعض اعتدوا الشركات لجمع الاموال وانفاقها في غرس الغابات والكروم وفي تكثير الزرع والضرع واستخدام مياه الانهار في الريّ والصناعة . ونعم القول او الرأي هذا . ولكن اين الاموال لذلك والبلاد في حالة الافلاس ؟ مَنْ منا في صندوقهِ مال مذخور يستغني عنهُ زماناً طويلاً ليودع في صناديق هذه الشركات ؟ اجيبوني ايها المثلون اجيبوني ايها الشبان المتخدمون . اجيبوني يا ارباب البيوت واصحاب الحرف والصناعات المختلفة . بل ما لنا ولهؤلاء اجيبوني ان استطعتم يا ارباب الاملاك الواسعة والعقارات الكثيرة وافتحوا صناديقكم لنرى ما فيها من الذهب الوهّاج . بالمزيد الاسف انها فارغة ليس فيها دينار واحد يستغني عنهُ مدةً . ما لنا ولهؤلاء ايضاً . هلموا بنا الى التجار والصيارف نستغيث بهم . يا تجارنا الكرام وصيارفنا الاغنياء افتحوا صناديقكم الحديديّة لنرى ما فيها من الاموال الاحتياطية . هل من احد منكم حاضر هنا يسمع كلامي ؟ اني اشكّ بذلك . لكن هب ان كان منكم احد الآن او كان غيرهُ ممن هو عارف بحقيقة الحال فماذا يجيب ؟ ان البورصة اجتلبت من هذه الصناديق في السنين الاخيرة من مدينة بيروت فقط ما يزيد في الراجح على الخمسمائة الف ليرة كان يمكن ان تستودع اساساً لمثل هذا المشروع وتزاد في المستقبل شيئاً

شيئاً فلم يبقَ ثمة لأ ما يكاد يكفي لحركة تجارتنا الاعتيادية البطيئة

يقول قائل اذن فلنستدن الاموال من الخارج . من صيارفة اوربا وبيوت المال فيها . واسفاه ان هذا ما يحاوله هؤلاء وهذا ما يسعون اليه جهدهم . وان تمّ لا سمح الله اصبحت غرماء في البلاد واصبحت السهول والجبال لهؤلاء دوننا وخيرٌ لنا ان تبقى البلاد قرعاء جرداء وعلى شرٍّ مما هي عليه وهي لنا من ان تصير الى ما نحلم به وهي لأولئك الاقوام . وكفى عبرة بما وقع لغيرنا وببعض ما وقع لنا

قالت الضفدع قولاً فسرتهُ الحكماء
في قفي ماء وهل يد طق من في فيه ماء

ايها السادة اني سمعت ما أكاد اظنهُ حملاً لا حقيقة وهو ان بعض اغنيائنا في مصر والشام قد عقدوا شركة مالية رأس مالها منهم وفي نيتهم ان يستخدموا هذا المال في احياء الموات من الاراضين وفي زارعة القطن واستثماره على الاخص فان كان ما سمعتهُ صحيحاً — حقق الله الخير — ففيه ما يحيي لنا شيئاً من الامل ونتوقع معهُ حسن العاقبة في المستقبل

ومع اننا على يقين ان الله اذا اراد امراً هيأ اسبابهُ فليس من الرأي ان نسترسل الى ما لم يتحقق بعد من الاماني وندع ما في مكنتنا اتخاذهُ من الوسائل والاسباب التي تقضي بها علينا الحكمة والرأي مما يكون رديفاً لهذه الشركة ودعامة لها تدعمها في حينها

يقول آخرون هذّبوا نفوسنا وثقفوا اذهاننا فان على تهذيبهم مدار النجاح والفلاح وفيه اساس لحسن الحال والمآل في العاجل وضمانة يُتلافى بها ما يهدّدنا من الافلاس في المستقبل . ولعل هذا القول قولاً ما اشرقهُ في الظاهر وارواهُ وما اسدَّهُ قبل التحقيق وامضاهُ وكان عليّ من حيث اني معلم ان اختم على محله من غير تردُّد فيه واهوّل بهِ على رؤوس الملا من غير تحريج لهُ . ولكن ان كان يقصد بالتهذيب مجرد التعليم على ما جرينا عليهِ الى الآن فما اكثر الاقوال الشائقة لكن على غير جدوى واروى الآراء المزوّقة لكن من غير تحصّل ولا فائدة ! هذه مدارسنا قد ملأت المدن والقرى ومنذ ثلاثين سنة الى الآن وعددها يتزايد وعدد الطالبين والطالبات يتكاثر فماذا نفع البلاد تعدّد المدارس او ماذا اجدى عليها تكاثر عدد الطلبة ؟ ان عندنا الآن من المدارس الكلية والعالية ما لو نسبناهُ الى عدد الانفس لأربى على ما عند الانكليز او الفرنسويين . ومع ذلك فالبلاد اليوم اقرب الى الافلاس مما كانت منذ عشرين او ثلاثين سنة وستكون بعد عشر سنين اقل رأس مال مما هي عليهِ الآن ان لم تتدارك امرها . قولوا لي ماذا نفع البلاد كثرة التلامذة وما هي الزيادة التي زادوها الى رأس مالها ؟ بل

كيف ينفضون البلاد وهم يهاجرونها الواحد بعد الآخر حتى بلغ فيهم اطراف المعمور من اميركا الجنوبية الى بلاد الفيلبين وقلب السودان وبلاد الترنسفال ورأس الرجا الصالح ولعلَّ بعضهم الآن في نواحي الصين او في قلب بلاد اليابان

والمتأمل يرى ان المهاجرة كانت تتزايد على نسبة تزايد عدد المتعلمين والمتعلمات وليس لذلك من سبب الاَّ ان التهذيب الذي تتهذبهُ يزيد من افلاس البلاد حتى اذا اتمَّ الطالب ايامهُ المدرسيَّة واخذ شهادتهُ العلمية او الطبيَّة او الصيدلية او التجارية لا يرى معهُ شيئاً من راس مالٍ يستند اليهِ ولا هناك في البلاد راس مالٍ يحمل عملهُ . والنتيجة ظاهرة انهُ لا يجد بدًّا من المهاجرة فيهاجر

فان قيل ان المهاجرة طبيعية وقد تكون دليلاً على تقدُّم البلاد قلت نعم لكن في غير الحالة التي نحن فيها اما في حالتنا نحن فلا لان سكان سورية لم يزد عددهم على ما تحتملهُ البلاد بل هي تحتمل اضعاف اضعاف الاهلين في الوقت الحاضر فالمهاجرة اذن غير طبيعية وهي دليل واضح على قلة راس المال بين ايدي الافراد المهاجرين وفي البلاد عمومًا

ايها الطالب العزيز الذي تباهي في الاسراف وكثرة النفقات حتى تسنزف على عملك آخر غرش في جيب ابيك وتتركهُ في آخر سنيك المدرسية صفر اليدين لا مال صامتًا ولا ناطقًا لديهِ بل كثيرًا ما تتركهُ وقد رهن بيت سكنهِ نفقةً عليك وتحمُّلاً لمطالب بذخك واسرافك . قل لي يا هذا ماذا يبقى امامك عند نهاية ايامك المدرسية الاَّ المهاجرة الى حيث ترى نفسك مضطرًّا ان تصرف معظم ما بقي من نشاطك وقوة شبابك لتفك ما رهنهُ ابوك على تعليمك ثم بعد ذلك تنفق نفسك وقواك في اعداد معدَّات ليتك حتى اذا صرت صاحب بيت وتزوَّجت خواطرك لإعالة فتياتك وفتياتك رأيت انك لم تذخر شيئًا بعد ولا تستطيع ان تذخر ويعود الدور بين اولادك وبينك على مثل ما كان بينك وبين ابيك . واذا كانت الحال على هذه الصورة فهيهات هيهات ان ترى بلادك الأَّ على ما هي عليهِ الآن . وهيهات هيهات ان يكون في طوقك ان تزيد على حالتها الحاضرة ما تصبح معهُ على ما تحلمُ ان تصير اليهِ . وكل آمالك بل احلامك الآن تموت عندما تستيقظ في ايام كهولتك لانك لا ترى بين يديك راس مالٍ تستغني عنهُ لتستخدم في ترقية شؤونها وزيادة قوتها وفلاحها . وبالاجمال فالتهذيب الحالي لم يبلغ ولا يبلغ بنا المقصود ولا هو مما يُركن اليهِ في تلافي امرنا وتدارك سوء مغبة ما نحن صائرون اليهِ من الافلاس والخراب . فكيف اذن نتلافى امرنا ؟

ايها السادة . اذا اردنا ازالة الداء فلا بدَّ من معالجة اسبابهِ الرئيسية وازالتها اولاً .

وليست هذه الاسباب الخمس على ما ارى ولا قلة الشبان المتهذبين على ما بيّنا ولا هي ايضاً كسل الاهالي وتراخي ايديهم عن العمل لان المتأمل الخبير يعلم ان صانعنا اليوم انشط من صانعنا بالامس واكثر منهُ اكتساباً ومثابرةً على العمل . وكذلك فلاحنا وزارعنا وبستانينا ومستخدمنا وتاجرنا وكاتبنا ومحاسبنا ومعلمنا فان جميع هؤلاء يشتغلون ويجتهدون في العمل فوق ما كانوا عليهِ في الماضي

وكذلك ليس السبب ايضاً عدم وجود الشركات العمومية لان عدم وجود هذه ليس سبباً للافلاس اوتسارع افراد الامة اليهِ بل هو نتيجة عنهُ . فان من الحقيقة التي لا تُنكر عند ذوي البصيرة ان عدم وجود الشركات العمومية مسببٌ عن عدم وجود راس المال اللازم لها بين ايدي الافراد لا سببٌ لنقص رؤوس الاموال هذه . نعم لو وُجدت هذه لزاد بها راس المال ولكنها لا توجد اولاً الاَّ بعد ان يوجد راس مالٍ بين ايدي الافراد غير راس المال الذي لا بدَّ لهم منهُ لادارة حركة اعمالهم الاعتيادية . وازيد ايضاً من غير ان أُنسب الى الاطراء والتملُّق للهيئة الحاكمة ان السبب في ما يهددنا من التسارع الى الافلاس ليس هو عدم الأمن ولا هو من اخلال ادارة الاحكام واعمال العمال الذين تقصر اجراءاتهم عن ان تأتي مطابقة للدستور لان الامن الآن هو فوق ما كان عليهِ بكثير منذ خمس وعشرين سنة ودليلهُ اتساع دائرة الزراعة والصناعة والتجارة فقد زاد المزروع في البلاد وزادت حاصلاتها وتجارتها وصناعتها الى ضعف ما كانت عليهِ قبلاً ان لم يكن الى اكثر من ذلك . ويستحيل ان تكون هذه الزيادة ما لم يكن الامن قد زاد ايضاً . واما تقصير العمال فاراهُ يكاد يكون مسبباً عن نقص راس المال في البلاد لا سبباً لهُ . نعم لا أُنكر انهُ كان خيراً للبلاد لو لم يوجد مثل هذا التقصير وانهُ سببٌ ايضاً في قلة راس المال لكنهُ ليس سبباً اولياً بل سببٌ ثانويٌّ ويمكن ان يزول شيئاً فشيئاً مع زوال السبب الاوليّ وفقاً لما تقتضيهِ ضرورة الوجود

والخلاصة ان كثيراً مما يُذكر انهُ سبب لتأخرنا ولتسارعنا الى الافلاس اما ان لا يكون سبباً اصلاً او يكون سبباً ثانوياً لا اولياً وما لم نعلم السبب الاولي ونسعى في ازالتهِ فلا يُرجى لنا نجاة مما نحن صائرون اليهِ . وعندي ان السبب الاوليّ انما هو اسرافنا وتبذيرنا اولاً من حيث نحن افراد وثانياً من حيث نحن امَّة . واليكم بيان ذلك ولو يراجعة ما المعنا اليهِ سابقاً ولنبدأ باسرافنا من حيث نحن افراد

رأينا الحاجة الى العلم فكثر عدد المدارس عندنا ولكننا اسرفنا في النفقات على تعليم

اولادنا لانا لم نبقِ لهم راس مال يستعينون بهِ بعد خروجهم من المدرسة بل لم نبقِ لنا اعني الاباء راس مال نستعين بهِ على تحصيل مقتضيات العيش لا مالاً في الجيوب ولا املاكاً تستثمر حتى باع البعض في سبيل ذلك او رهنوا بيوت سكنهم . واي اسراف فوق هذا الاسراف . كثرت اجور صناعنا فصارت ضعف ما كانت اولاً ولكن لم يجدِ علينا ذلك لان صناعنا اسرفوا في نفقاتهم على طعامهم وشرابهم وكسوتهم حتى اصبحت هذه اما تعادل اجورهم او تزيد عليها . فترى الشاب منهم ينفق جزافاً على طعامهِ ولباسهِ ودخانهِ وشمّ هوائهِ كأنما هو من اصحاب الاموال الكبيرة فيأتي آخر الشهر او آخر السنة فاذا هو لم يدخر في كل سنتهِ شيئاً راس مالٍ يستعين بهِ على تحسين حالهِ بل كثيرون منهم يقون عليهم ديوناً يتماطلون بها

وليس الشاب المستخدم بارقى حالاً من الشاب الصانع لانك ترى احد هولاء في لباسهِ ونفقات طعامهِ وجيبهِ وترى مخدومهُ فلا يظهر لك من نفقاتهما ايهما الخادم وايهما المخدوم بل قد تظن الخادم مخدوماً احياناً . واذا حادثت احد هولاء فذكر لك ما ينفق على طعامهِ وشرابهِ وكسوتهِ ونوع الدخان الذي يدخنهُ ومقدار ما يدخنهُ في اليوم او ذكر لك ما انفق على شمّ هوائهِ مع اصحابهِ (وقد لا يكون مبالغاً) ظننتهُ يأخذ من الاجرة ثلاث مرات او اربع مرات ما يأخذهُ حقيقةً . وما هي نتيجة كل ذلك ؟ انهُ يقضي ايام شبابهِ مقلاً وربما يموت كذلك . واما ابناء المدارس واسرافهم في النفقات على لباسهم وجيوبهم فامرهُ اشهر من ان يذكر ولقد اصبحوا مضرب مثل في الاسراف والتبذير وهم لا يفطنون

وعلى ذكر الطلبة اراني مضطرًّا الى ذكر المعلمين اي خدمة العلم ومربي العقول ومهذبي الاخلاق ومثال الحكمة والروية ولكن كيف نجد هولاء الافاضل أقلَّ اسرافاً هم من الطلبة ؟ انا لا استطيع ان اجيب بالايجاب بل اقول بكل اسف انهم — وان كنت لا اجد في المئة منهم عشرة يتم احدهم معظمتاً في انهُ اذا توقف عن العمل شهراً واحداً لا يحتاج الى مساعدة الآخرين — هم مع ذلك مسرفون يتطلعون الى التأنق في الملابس والمآكل والمظاهرات الخارجية كأنَّ احدهم ربّ الالوف من الجنيهات وتظهر امرأتهُ واولادهُ في مثل مظهرهِ ان لم يزيدوا عليهِ وندر ان يموت احدهم غير فقير ويترك اولادهُ غير عالةٍ

دعونا من المعلمين والطلبة واصحاب الحرف والمستخدمين بل دعونا من الطبقة الوسطى من اهل الصون والستر عن آخرها . مساكين جميع هولاء فانهم يبدأون بالحياة ولا رأس مال معهم ويموتون واكثرهم لا يتركون شيئاً الاَّ الدين وان كان جزئياً — واولاداً في الغالب عالة

على ذوي قرباهم . ولنأت الى اصحاب الاملاك والعقارات فان هؤلاء زادت املاكهم وعقاراتهم وزادت مداخيلهم ايضاً ولكن ماذا انتفعت البلاد من تلك الزيادة وهم في نهاية شوطهم تراهم اصبحوا وقد اثقلتهم الديون حتى كادت تستغرق كل املاكهم ومقتنياتهم وما لذلك من سبب الاَّ الاسراف في النفقات والخروج عن خطة الفطرة الى التقليد في كل شيء تقريباً ومباراة اصحاب الملايين في اوربا واميركا

بقي علينا التجار والصيارف وهم من نتسرَّب اليهم اخيراً فضلات اموال البلاد او ما بقي من هذه الفضلات التي انفقها اهلها جزافاً على كل شيء اجنبي . ماذا صار لهذه الاموال التي هي عمدة نجاح البلاد وعلى نسبة الموجود منها يكون حالها من القوة والضعف والتقدُّم والتأخر ؟ اباقية هي على ما كان ينبغي ان تكون ؟ واسفاهُ ان ما سلم من اسراف المتوسطين واصحاب الاملاك والعقارات لم يسلم من اسراف التجار والصيارفة الذين استغوتهم البورصة فاضاعوا فيها اغلب ما كان ينبغي ان يدَّخر في البلاد ويستخدم في انماء الزراعة والصناعة . هذا هو داؤنا اي الاسراف وهو السبب الاصلي في مسارعتنا من حيث نحن افراد الى الافلاس والخراب

ولو نظرتم الينا من حيث انا مجتمع وامةٌ لرأيتم الاسراف قد بلغ فينا مبالغهُ لاننا كامة قد ماتت نفوسنا واعتبارنا لنفوسنا فاصبحنا نحتقر كلَّ ما هو وطنيٌّ ونصرف عنهُ ونعظِّم كل ما هو اجنبيٌّ ونُقبل عليهِ وقد اسرفنا في الامرين كلَّ الاسراف حتى امتنا صناعة البلاد والجأنا الصانع اما الى المهاجرة واما الى الخمول والموت فقرًا . وشاهدي قريب فاني اسألكم رجالاً ونساء اتلبسون ايها الرجال من منسوجات الشام وحمص وحماه والزوق ام تلبسن ايها السيدات من حرائر البلاد المنسوجة على انوال بيروت والشام وطرابلس والاستانة؟ ما اظنّ احداً منا يجيب بالايجاب بل بدأ كثيرون من متأنقينا على ما المنا ان يأمروا فتخاط احذيتهم واثوابهم في باريس ولندن وغيرهما من المدن الغربية استكباراً لصناعة اولئك واحتقاراً لصناعتنا مع ان الفرق هنا مما لا يُعتدُّ بهِ بين الصناعتين . وهذا منتهى الاسراف ومنتهى الصغار ايضاً وضعف النفس في الامة

ايها السادة والسيدات داؤنا الاسراف والتقليد الفارغ وهما السبب الاوليُّ في تسارعنا الى الافلاس والخراب ولا يوقفنا عما نحن مسرعون اليهِ الاَّ الاقتصاد وترك التشبه والتقليد فان لم نقتصد ايها الطالب في نفقاتك بقدر ما تستطيع افنيت رأس مال ابيك وتركتهُ لا يستطيع ان يأتي بعمل بعد ذلك للقيام بنفقاتهِ ونفقات بقية افراد عائلتهِ وتركت نفسك

بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الاَّ المهاجرة والاغتراب حيث تعرف قوى عقلك ونشاط شبابك في غير بلادك وتخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع في لباسك وطعامك ونفقات جيبك ليتأتَّى لك ان تدَّخر في كلّ سنة شيئاً تعدّهُ رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانعاً واورثت بنيك الفاقة والمذلة او اضطررت الى الاغتراب والمهاجرة . وشبيهات ان تكون هناك اكثر من خادم او صانع تخدم غير ذويك وتستضع لغير بلادك واهلك

ان لم تقتصدوا يا اصحاب البيوت في نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما انتم عليه تعللون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر وانتم تزجون العيش تزجيةً . واذا افضى احدكم لاسمح الله الى المذلة والفقر فلا تلومنَّ الاَّ انفسنا على سوء تدبيرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا اصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا سغبة الدين وان تنتقل املاككم وعقاراتكم الى ايدٍ غير ايديكم او غير ايدي بنيكم ولا تكون مع الايام الاَّ يداً اجنبيةً اقدر منكم على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها الشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقَّوا اشراك البورصة وتهربوا منها هربكم من الافعى جررتم انفسكم الى الافلاس العاجل وجررتم البلاد بأسرها معكم الى الخراب والدمار . والخلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والخراب المشارعين اليهِ الاَّ الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما النصح الاَّ لنفسي واهلي والسلام

جبر ضومط

الاحتضارات والقبريَّات

(تابع ما قبلهُ)

وقال ابن المعتزّ وهو يلفظ انفاسهُ (سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م)

يا نفس صبراً لعلَّ الخير عقباكِ ... خاتمك من بعد طول الأمن دنياكِ

مرَّت بنا سحراً طيرٌ فقلتُ لها ... طوباكِ يا ليتني اياكِ طوباكِ

ان كان قصدكِ شرقاً بالسلام على ... شاطي الفرات أبلغي ان كان مثواكِ

من موثق بالشايا لا فكاكَ لهُ ... يبكي الدماء على الف لهُ باكِ